فـــترة جمام

نفض الرافعى يديه من المعركة بينه وبين العقاد ، ثم فاء إلى نفسه ، وعاد إلى دار كتبه يطالع ويقرأ ويتزوّد ... واختفى اسمه من الصحف والمجلات أشهراً ، كان فى أثنائها يتهيأ لإتمام كتابه « أسرار الإعجاز » ، ويعمل فى الوقت نفسه على جمع ما نشر من المقالات فى الفترة السابقة وترتيبها ، ليخرجها كتاباً يسميه « قول معروف ... »

على أن عنايته بشأن هذين الكتابين : أسرار الإعجاز ، وقول معروف — لم يمنعه أن يكون له فى كل يوم ساعات محدودة للقراءة والاطلاع . وكانت هذه الساعات المحدودة فى أكثر لياليه تمتد من المغرب إلى منتصف الليل . وأستطيع أن أقول : إن هذه الفتره على ما كان يبذل فيها من جهد ، كانت فترة جمام وراحة لم ينعم بمثلها فيما بقى من حياته . وكنت بصحبته يومئذٍ قريبَ العهد ، ولكنى كنت ألصقَ أصحابه به ؛ فكان لى معه كل يوم ساعات : يقرأ لى وأستمع إليه فى داره ، أو أماشيه فى الخلاء ، أو أجالسه فى القهوة ، أو أصحبه إلى السينما . وكان علىّ فى هذه الفترة وفيما بعدها من الزمن ، أن أقرأ ما يهدَى إليه من الكتب ، لأشير له إلى المواضع التى يجدى عليه أن يقرأها ، ضنًّا بوقته على قراءة ما لا يفيد . وكثيراً ما كان يدفع إلىّ بعض ما يرد إليه من الرسائل ، لأرى رأيى فيه وأشير عليه بالجواب ، أو أتولى ذلك بنفسى . وكانت هذه الفترة ذات أثر كبير فى تكوينى وتوجيهى فى الأدب توجيهاً لم أكن أقصد إليه ؛ كما تأثر هو بصحبتى فى هذه الفترة تأثراً وجّهه فى أدب الإنشاء توجيهاً لم يكن يُعرَف به منذ نشأ فى الأدب قبل ذلك بثلاثين سنة ؛ فبدا أسلوبه أكثر استواء عند عامة القراء ، وكان قبلها

يُتَّهَم بالغموض والتعقيد ؛ كما عالج القصة فنجح فيها إلى حد بعيد ، إذ كانت القصة — وما تزال — أحبَّ ألوان الأدب إليّ ، على حين كان الرافعي لا يؤمن بفائدة القصة ولا يعترف بخطرها بين أبواب الأدب الحديث . فما هو إلا أن حملتُه على محاولتها فأنشأ قصته الأولى ؛ ثم كأنما اكتشف نفسه من بعدُ فصار ما ينشئ من القصص هو أحبَّ منشآته إليه ، وخطا بها إلى نفوس القراء خطوات ...

ومن طريف ما يذكر في هذا الباب أنني كنت أنشئ القصص لمجلة الرسالة ، لا أكاد أعنى بشيء غيرها من موضوعات الأدب ، وكان حُسن وقْعها عند القراء يدفعني إلى الإجادة والاستمرار ؛ ولكن قارئاً واحداً كان يعيب عليَّ ما أكتب ، ولا يرضى مني أن تكون القصة هي كل ماأعالج من فنون الأدب، ذلك هو الرافعي. وكثيراً ما كان يقول لي : « يا بني ، إن لك بياناً وفكراً ومعرفة ، فلماذا لا تحاول أن تكون أديباً ؟ إنه لا يليق بك أن تكون القصص هي كل ما تحاوله من ضروب الإنشاء ، وإن فيك استعداداً لأكثر من ذاك ... ! » وما زال يلحّ عليّ ويكرر هذه الملامة ، حتى وقع في نفسي أنني أسيء إلى نفسي بمحاولتي أن أكون قصصياً ؛ فانصرفت عن القصة وكانت أحبّ إليّ ، إلى فنون أخرى من الأدب ، إلا ما أنشيء من « القصص المدرسية » التي أؤلفها لتلاميذي على أنها وسيلة من وسائل التربية لا باب من الأدب . ثم لم يمض بعد ذلك إلا قليل ، حتى كانت القصة هي أكثر ما يعالج الرافعي من أدب الإنشاء، وكان له فيها فَوَاقٌ وسبْق، وحلَّت القصة محلها من تقديره بين أبواب الأدب ... !

وإذ كان في أذني الرافعي ذلك الوقر الذي يقطعه عن دنيا الناس ، فإن أسلوبه في الكتابة كان بعيداً عن فهم الكثير من ناشئة القراء . فلما اصطفاني بالودّ ، أخذت على نفسي أن أكون أذنه التي يسمع بها ما يقال عنه وما يرى القراء في أسلوبه ، فكنت إذا جلست إليه ليملي عليّ ، أحاوره فيما يدق على الأفهام من أسلوبه ، وما تنبو عنه أسماع القراء . ثم لا أزال به حتى يغير العبارة فيجعلها

أدنى إلى الفهم وأخف على السمع . وكان ينكر ذلك علىّ أولَ أمره ، بما فيه من اعتداد بنفسه وكبرياء ، وكان أحياناً يوشك أن يغضب ، وأنا أتلطف له وأحتال عليه ؛ ثم لم يلبث أن رضى ذلك منى ، فكان يملى علىّ العبارة من المقال ، ثم يسألنى : « ماذا فهمت مما كتبت ؟ » فإذا كان ما فهمت يطابق ما فى نفسه، مضى فى إملائه؛ وإلا عاد إلى ما أملاه بالتغيير والتبديل حتى يتضح المعنى ، ويبين المراد . وبلغ فى النهاية أن يسمينى — على المزاح — : العقل المتوسط من القراء .. !

* * *

لم يُنشر للرافعى فى هذه الفترة شىء ذو بال ، إلا أحاديث كان يملها على بعض المرتزقة من كتّاب الصحف الأسبوعية . وكان له بطانة من هؤلاء الكتاب يعطف عليهم ويعينهم على العيش ، فكانوا يفدون إليه فى المحكمة ليسألوه حديثاً فيملى عليهم جوابه ، ثم يذهبون لينشروه حيث يشاءون ويقبضوا أجره

فى هذه الفترة ، وكَلَ إليه الأديب حسام الدين القدسى الورّاق تصحيح كتاب « ديوان المعانى » لأبى هلال العسكرى ، وكان قد وقع منه على نسخة خطية فطبعها بأغلاطها وتصحيفها ، ثم بدا له قبل أن يتم طبع الديوان أن يلجأ إلى الرافعى ليصحح له أغلاطه ويتم نقصه، على أن ينشره فى الجزء الأخير من الكتاب.

وقبِل الرافعى هذا التكليف على قلة أجره، ليقرأ الكتاب قبل أن يقرأه الناس، وليستمتع بلذة المعاناة فى تصحيحه وتصويب خطئه ؛ وإنها لرياضة عقلية ممتعة ، لا يستشعرها ولا يقوى عليها إلا القليل من الأدباء . ومضى فى هذا العمل شهراً أو يزيد ، وكنت معه فيه ، ثم انتكثت المعاهدة التى كانت بينه وبين القدسى ، فترك له كتابه بعد أن أصلح منه جزءاً غير قليل . وقد استطعت فى تلك الفترة التى صحبت فيها الرافعى وهو يحاول تصحيح الكتاب ، أن أعرف مقدار اطلاعه وسعة علمه وقوة بصره بأساليب العربية ؛ وقد رأيت منه فى هذا الباب أشياء عجيبة ؛ من قوة المحافظة ، وسرعة الاهتداء إلى مراجع البحث ، ومهارة الاستدلال على مواضع النقص ، حتى لكأنى بإزاء مكتبة دقيقة الترتيب منظمة التبويب ما شئتَ من

بحث هدتك إليه قبل أن تبحث عنه . على أنه كان أحياناً يعرف موضع النقص من الكتاب ثم لا يهديه البحث إلى تتمته ، فيضع فكره موضع فكر المؤلف ليستقيم المعنى ويتساوق الكلام ، وأكثر ما كان يقع ذلك فى الشعر المشطور . وقد حدث مرة أن ظل الرافعى يبحث يوماً كاملاً عن تمام بيت من الشعر فى مظانه من كتب العربية ؛ فلما أعياه البحث جعل تمامه من نظمه ، ثم مضى إلى تصحيح ما بعده من الكتاب . وفجأة ترك ما هو فيه وقال : « اسمع ! ناولنى الكتاب الفلانى » فمددت يدى إلى موضعه من المكتبة فناولته إياه ، فأخذ يتصفحه قليلاً ثم قال : « لقد وجدته ... هذا هو البيت الذى كنت أبحث عنه وتمامه . عد إلى ما كتبت من قبل لتصححه ! » وعدت إلى ما كتبت ، ورجعت النظر فى الكتاب الذى بين يدى ؛ فإذا تمام البيت فيما كتبت وفى الكتاب سواء ، لا يختلفان إلا فى حرف الجر ... أكان فضل هذا إلى ذاكرة الرافعى ، أم إلى قوة بصره بالشعر وبأساليب البيان ... ؟

* * *

ولم يكتب الرافعى فى هذه الفترة إلا بضع مقالات ؛ وكان لكل مقال حافزه وداعيه :

١ — كان السيد حسن القاياتى يكتب فى جريدة « كوكب الشرق » كلمات فى موضوعات شتى من وحى الساعة وخواطر الحياة . فبدا له يوماً أن يكتب فى الموازنة بين قول الله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة ... » وقول العرب : « القتل أنفى للقتل ! » فانزلق إلى رأى ... وكان محرر الكوكب فى ذلك الوقت هو الدكتور طه حسين ، وهو مَن هو عند الرافعى فى دينه وفى أدبه وفى إيمانه بقدس القرآن ... ولم يكن الرافعى يواظب يومئذ على قراءة كوكب الشرق .

وجاءه البريد ذات صباح إلى الرافعى برسالة من صديقه الأستاذ محمود محمد شاكر يلفت نظره إلى ما كتب الأستاذ القاياتى وإلى ضلاله فى تفضيل الكلمة الجاهلية على آية القرآن ؛ ودفع إلىّ الرافعىُّ برسالة شاكر وهو يقول : « أتصدّق

هذا ؟ أيجرؤ أحد أن يقولها ، أم هى مبالغة وتهويل من محمود ، أم هو لم يفهم ما كتب الكاتب المسلم وحمل كلامه على غير ما يريد ؟ »

ثم بعث فى طلب الجريدة التى نشرت هذه الضلالة فجىء بها . فما كاد يقرؤها حتى اربدّ وجهه وبدا عليه الغيظ والانفعال ، ودار لسانه بين شدقيه بكلام ، ثم لم يلبث أن نهض مغضباً إلى الدار قبل موعده ، فانقطع عنى يومين ثم أرسل يستدعينى إليه ، فأملى علىّ مقالة طويلة بعنوان : « كلمة مؤمنة فى رد كلمة كافرة ! »

وكانت مقالة من عيون مقالات الرافعى ، نشرتها البلاغ فى صفحتها الأدبية ؛ وقد أورد فيها بضعة عشر رأياً فى بيان إعجاز الآية ومبلغها من البلاغة بإزاء الكلمة الجاهلية ، وقد جعلها من بعدُ فصلاً من شواهد كتابه « أسرار الإعجاز » الذى لم يطبع بعد ...[1]

وقرأ الأستاذ القاياتى مقال الرافعى فى الرد عليه ، وأحسبه قد اقتنع بما قرأ واعترف على نفسه فى خلوته ، ولكنه لاذ بالصمت ، وكانت كرامته الأدبية أعز عليه من كرامة القرآن ، فلا هو ردّ عليه ولا هو اعترف علانيةً بما كان من خطئه فيما انزلق إليه .. !

وفتح مقال الرافعى أبواباً من القول لطائفة من الأدباء ؛ إذ كان فيما ردّ به الرافعى أن كلمة «القتل أنفى للقتل» ليست جاهلية كما يعرف أكثر قراء العربية ، ولكنها نشأت فى العصر العباسى لمثل ما استعملها له الأستاذ القاياتى فى معارضة القرآن ، وأسندها مخترعها إلى حكيم الجاهلية أكثم بن صيفىّ ليتمّ له قصده ؛ وجازت دعواه على كثير من قراء العربية حتى كشف الرافعى عن زيفها بعد ألف سنة !

كان تاريخ هذه الكلمة ميداناً للقول والمعارضة أياما بين الرافعى وبعض الأدباء ؛ وكان أول من عَرَض لمناقشة رأى الرافعى هو أخونا الأستاذ عبد العزيز الأزهرى ؛ ولكنه لم يلبث أن شعر بالإعياء من أول شوط ؛ فكتب إلى الرافعى

---

(١) نحسن الظن كثيراً إذا زعمنا أن هذا الكتاب الفريد فى موضوعه وفى تأليفه ، سيلقى من عناية أدباء العربية ما يحملهم على محاولة طبعه فى يوم قريب ... !

رسالة خاصة فى البريد يستعفيه ويعتذر إليه بأنه مشغول البال بالاستعداد للزواج ...!

ثم تداول الرأىَ غيرُه ، فكتب الأستاذ الكبير « أزهرى المنصورة[١] » يرى فى تاريخ الكلمة رأياً غير ما يرى الرافعى ؛ وكتب شيخ أدباء العروبة الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى ؛ وطال الشدّ والجذب حول تاريخ هذه الكلمة فترة من الزمان [٢] .

* * *

٢ — وفى هذه الفترة تم إنشاء «المجمع اللغوى» وكان الرافعى يمنى نفسه بأن يكون من أعضائه ، فحال بينه وبين ما يتمنى أنه لا يسمع ؛ وإن لم يمنعه ذلك أن يكون عضواً فى المجمع العلمى العربى بدمشق ، وقد اختير له هو والمرحوم حافظ بك إبراهيم قبل ذلك بسنوات ، فلم يشهد جلسة من جلساته ، ولم يشترك فى قرار قرره ، ولم يبعث إليه برسالة واحدة فى موضوع من موضوعات العلم العربى ...

وساء رأى الرافعى فى المجمع اللغوى من يوم إنشائه ، ولم يمنعه من الحملة عليه أنه كان موعوداً بأن يُختار فيه عضواً مراسلاً كما أنبأه صديقه فارس نمر باشا عضو المجمع

وافتُتح المجمع ، وكان أول محرراته الأدبية برقية بالشكر إلى المرحوم الملك فؤاد

ولقيت الرافعى ذات مساء ؛ فإذا هو يرفع إلىّ جريدة البلاغ قائلاً : « اقرأ ؛ هذا أديب صغير يهاجم المجمع اللغوى فى يوم إنشائه ، ويزعم أنه لم يستطع أن يكتب برقية بريئة من الخطأ ليشكر بها منشئه ... ! »

وقرأت ، فإذا نقد عنيف ، وتهكم مر ، وسخرية لاذعة ... كانت كلمة صغيرة ولكنها ذات شأن ، وقد اختار كاتبها أن يكون توقيعه (أديب صغير) مبالغة

---

(١) صح عندنا أخيراً أن الأديب الكبير (أزهرى المنصورة) هو أستاذنا وصاحب الأيادى علينا الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى نفسه ؛ فمن شاء برهاناً على ذلك فليقرأ الصفحات الأولى من كتابه القيم (الاسلام الصحيح)

(٢) انظر قصة الكلمة المترجمة : فى الجزء الثانى ، السنة السادسة من مجموعة مجلة الرسالة

فى السخرية والتهكم . وأخذ الكاتب على المجمع بضع غلطات لا يتنبه لمثلها إلا أديب دارس له فى العربية مكان .

وقال الرافعى : « ماذا رأيت ؟ » قلت : « نقد مر لا يبلغ به هـذا المبلغ على إيجازه إلا أديب كبير ! » قال : « فمن تظنه ؟ » وكان سؤاله مشعراً بجوابه ، ولـكننى كذبت نفسى ... أيكون هو ؟ وما يحمله على أن يخفى عنى؟ لقد كان معى أمس ، وأمس الأول ، فلم يحدثنى بشىء فى ذلك ؟

وقلت للرافعى : « أو تعرف كاتبه ؟ » قال : « حاول أن تفكر ... لقد حاولت فلم أوفق » وكان حسبى هذه الـكلمة ليزول كل شك فى نفسى ، فما كَذَب علىَّ الرافعى قبلها قط ... ! ولم أعرف إلا بعد أيام أنه هو ...

ورد المرحوم الأستاذ حسين والى عضو المجمع ، وعاد الرافعى يرد ويتهكم ويسخر ، ويتحدَّى المجمع اللغوىَّ كله أن يرشده إلى الأطوار الاجتماعية التى مرَّت بها كلمة (حظِىَ) حتى ساغ للمجمع من بعدُ أن يستعملها بمعنى (ظفر) فى برقية الشكر إلى جلالة الملك ... وسكت المجمع ، وسكت الأستاذ حسين والى ، وظل الرافعى (الأديب الصغير) يكتب حتى جاءه الرجاء أن يسكت فسكت !

مقالات (الأديب الصغير) فى نقد المجمع اللغوى : هى آخر ما كتب الرافعى فى النقد على أسلوبه وطريقته[1]

٣ — ومما كتبه الرافعى فى تلك الفترة بحث طويل فى البلاغة النبوية أنشأه إجابة لدعوة جمعية الهداية الإسلامية بالعراق ، لتنشره فى ذكرى المولد النبوى . وقد لقى من العناء فى إنشاء هذا الفصل مالا أحسب غيره يقوى عليه . وحسبك أن تعلم

---

(١) كان ممن نالهم رشاش هذه المعركة الصغيرة ، شيخنا العلامة الأستاذ عبد القادر المغربى عضو المجمع ، سلكه الرافعى فيمن سلك على غير قصد ولا نية ؛ لأنه اتفق له رأى فى بعض ما يجب على المجمع نشره فى البلاغ إبان هذه المعركة ، فظن الرافعى أنه يعنى بهذا المقال أن يرد عليه ، فكان للرد على الأستاذ المغربى نصيب من مقال الرافعى . تقرأ قصة (حظى بالشىء) فى تفصيل أطوار هذه المعركة ، فى الجزء الثانى ، السنة السادسة من مجلة الرسالة ، لأستاذ جليل .

أن الرافعي لم يتهيأ لكتابة هذا الفصل حتى قرأ صحيح البخاري كله قراءة دارس، وأنفق في ذلك بضعة عشر يوماً ، وهو وقت قليل لا يتسع للقارئ العجل أن يقرأ فيه صحيح البخاري قراءة تلاوة؛ فكيف به دارساً متمهلاً يقرأ ليتذوّق بلاغة الأسلوب ودقة المعنى ؟ ولكن ذلك ليس عجيباً من الرافعي الذي كان يقرأ كل يوم ثماني ساعات متوالية لا يمل ، فلا ينهض عن كرسيه حتى يوجعه قلبه !

وكتب الفصل بعد ذلك في ثلاثة أيام ، ثم دفعه إليّ لأكتبه بخطي ولم يمله عليّ ، فأنفقت في كتابته ثلاثة أيام أخرى .

هذا الفصل يملأ نحو أربعين صفحة من مثل هذا الكتاب، ويصلح أن يكون خاتمة لكتاب إعجاز القرآن — لو قدر لإعجاز القرآن أن يطبع طبعة جديدة — فإنه أشبه بموضوعه وفيه تمامه .

٤ — وما فرغ الرافعي من كتابة هذا الفصل ، حتى أحس بحاجته إلى الراحة بعد ما بذل من جهد ، فأغلق دار كتبه وخرج إلى الشارع يشم الهواء ، ثم لم يكد يأتي المساء حتى جاءه البريد برسالة من جمعية الكشاف المسلم بالشام ، تطلب إليه أن يعدّ لها موضوعاً تنشره في صحيفتها لمناسبة المولد النبوي كذلك ... !

وضاقت أخلاق الرافعي ، فهم أن يلقي الرسالة ليفرغ لنفسه بضعة أيام للاستجمام ، ثم تحرّج ، فعادت إليه ابتسامته وهو يقول : « سأفعلها قُرْبى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو رمى بي هذا الجهد المتواصل إلى تهلكة ! » وعاد إلى مكتبه وهو متعب مكدود . . . ثم أملى عليّ مقالة « حقيقة المسلم » الذي أعاد نشره في الرسالة بعد ذلك وجمعه إلى وحي القلم

وله في هذه الفترة بضع مقالات أخرى نشرها في مجلة المقتطف . ثم دعته الرسالة ليكتب فصلاً عن الهجرة في العدد الممتاز الأول لسنة ١٣٥٣ هـ ، فكان ذلك أول عهده بالكتابة فيها ، ثم اتصل بها حبله .

* * *

٥ — بعد ما أنشأ الرافعي مقالة « وحي الهجرة في نفسي » ، أهدى إليه الشاعر

المهندس على محمود طه ديوانه « الملاح التائه » ، وأحسبه طلب إليه أن يكتب عنه . وكان بين الرافعى والشاعر المهندس صلة قديمة من الود ، أظنها نشأت فى حجرة الأستاذ صروف محرر المقتطف ، حيث كان الرافعى يقضى أكثر أوقات فراغه كلما هبط إلى القاهرة لعمل من أعماله . وهناك يلتقى الرافعى ، وصروف ، وإسماعيل مظهر ، ومحمود شاكر ، والمعلوف ، وغيرهم من أدباء العربية ، فيحتدم الجدل ساعات فى موضوعات شتى من الأدب . ولم يكن للرافعى ندوة أدبية يقصد إليها كلما جاء القاهرة منذ هجر فلانة — أحبّ إليه من دار المقتطف ، ثم صار له ندوة ثانية من بعدُ حين اتصل سببه بالرسالة ؛ فكان يقضى وقته بين عيادة الدكتور شخاشيرى فى فم الخليج ، وعبد القادر حمزة والمازنى فى البلاغ ، وإخوان صروف فى المقتطف ، والزيات فى دار الرسالة . ولم يلتق إلا مرة أو مرتين بالأستاذ أحمد أمين والدكتور عزام فى « لجنة التأليف والترجمة والنشر » ، عند ما كانت اللجنة قائمة على طبع كتابه «وحى القلم » .

قلت : إنه كانت بين الرافعى والشاعر على محمود طه صلة من الود . ومنها أن الشاعر المهندس وضع له رسماً (تصميماً) للبيت الذى كان فى نيته أن يبنيه لينتقل إليه وينقل دار كتبه قبل أن يموت . ولهذا البيت قصة لم تتم ، لأن هذا البيت لم يتم ... فقد كان كل ما ادخره الرافعى من جهاده بضعاً وثلاثين سنة ، بضعَ مئات من الجنيهات ، اشترى بنصفها قراريط لينشئ فيها حديقة وبيتاً يسكنه — إذ كان وما زال إلى أن مات يسكن بيت أبيه — وبقى معه بعد ذلك قدر من المال لا يكفى نفقات البناء والإنشاء ، فآثر أن ينتظر حتى يجتمع إليه شىء ، وأسلف صهرَه ما بقى عنده من المال إلى أجل ، وفى النفس أمل . . . ثم جاءت الأزمة فأكلت ثروة صهره جميعاً لم تُبق منها على شىء ، وضاعت ذخيرة الرافعى فيما ضاع ولم يستطع المدين وفاء الدين ، فلم يبق للرافعى من جهاده وما ادخر إلا الأرضُ الخربة ، والأمل فى عطف الله ، وخطوط تبين حدود البيت وحجراته وأبهاءه وحديقته ، مرسومةً على ورقة زرقاء ... !

... وجاءه ديوان الشاعر على محمود طه ، وديوان الماحى ؛ فدفعهما إلىّ لأختار له ما يقرأ من كليهما . ولم أكن أعرف يومئذ ما بينه وبين الشاعر المهندس ، ولكن رأيى فى ديوانه وافق هواه ؛ فما فرغت من قراءته حتى دفعته إليه وعلى هامشه إشارات بالقلم ، وما دفعته إليه حتى تهيأ للكتابة عنه ...

وأنشأ مقالة مسهبة نشرها فى المقطم ، تحدث فيها عن الشعر حديثاً يبين مذهبه وطريقته فى فهم الشعر وفى إنشائه ؛ ثم انثنى إلى الشاعر المهندس يمدح ويثنى ، وينتقد وينصح ... وكان مؤمناً بما كتب ، ولكن إيحاءات من الواعية الباطنة[1] كانت تملى عليه بعض الحديث فى التعريض ببعض الشعراء المعاصرين ...

وتناول الأستاذ المازنى ديوان « الملاح التائه » فى البلاغ بعد ما تناوله الرافعى ، فعاب عليه أشياء كان الرافعى يمتدحها ، وأخذ على الشاعر أنه كثير العناية باللفظ والعبارة والأسلوب ؛ فكانت مقالة الأستاذ المازنى حافزة للرافعى على أن ينشئ مقالة للرسالة فى الرد عليه ، جعل عنوانها « الصحافة لا تجنى على الأدب ولكن على فنيّته » ؛ فبهذه المقالة كان الرافعى يقصد الأستاذ المازنى ، دفاعاً عن صديقه الشاعر ، أو دفاعاً عن مذهبه فى الشعر . وكانت هذه أولى مقالات الرافعى فى الرسالة بعد فترة من مقالة « وحى الهجرة » وقد أنشأها على نهجه القديم ، وحاول فيها فناً من التهكم فى قصة اخترعها عن الأصمعى الراوية فى عهد الرشيد

* * *

كان الرافعى مفتوناً بمقالاته الثلاث التى أنشأها فى هذه الفترة : البلاغة النبوية وحقيقة المسلم ، ووحى الهجرة . وكان حسن وقعها عند كثير من القراء ، حافزاً له على الاستمرار فى هذا الباب من الأدب الدينى ، فعقد النية على أن يكتب السيرة النبوية كلها على هذا النسق الفلسفى ، ليجعلها كتاباً بعنوانه ، يتناول سيرة النبى المعظم — صلى الله عليه وسلم — على طريقة من التحليل والفلسفة ، لا على نسق

---

(١) الواعية الباطنة : هو تعبير الرافعى عما يسمونه فى علم النفس بالعقل الباطن .

من الرواية . فأنشأ بعد ذلك مقالاته : « سموّ الفقر » ، و « الإنسانية العليا » ثم بان له من بعد أن هـذا الفن من الإنشاء عسر الهضم عند كثير من القراء ؛ فتركه إلى موضوعات أخرى يعالج بها بعض مشاكل الاجتماع فى الحياة المصرية ، على أن يكتب ما يتيسر له من المقالات النبوية نجوماً فى فترات متباعدة حتى لا يمل قراءه أو يثقل عليهم ، وسأتحدث من بعدُ عن كل مقال من المقالات التى أنشأها للرسالة فى الفترة التى صحبته فيها ، لعل ذلك يعين على فهم أدب الرجل ودوافعه ومعانيه ؛ ولعله يبلغ بى الوسيلةَ إلى الذين لا يفهمون أدب الرافعى ثم يحاولون أن يتحدثوا عن أدب الطبع وأدب الذهن ، أو الأدب الفنى والأدب النفسى ...

ولـكن علىّ قبل أن أبدأ هذا الحديث ، أن أصف الرافعى حين يهم بموضوعه ، ثم حين يفكر فيه ، ثم حين يتهيأ لـكتابته ، ثم حين يمليه علىّ من القصاصات المبعثرة على مكتبه ، فإن ذلك من الموضوع فاتحته وأوله :